الفلسفة الإسلامية وعلاقتها بعلم الكلام والتصوف والفقه والعلم

عمر سالم العطاس

يعتقد الكثيرون أن بداية الفلسفة الإسلامية (الحكمة) كانت نتيجة التفاعل مع الفلسفة والعلوم الإغريقية وترجمتها إلى العربية؛ وهذا غير صحيح. فالقرآن الكريم يتحدث عن الحكمة والحكماء في أكثر من موضع حيث يقول تعالى، "ولقد آتينا لقمان الحكمة أن اشكر لله ومن يشكر فإنما يشكر لنفسه ومن كفر فإن الله غني حميد." يفصل القرآن الكريم ـ أيضا ـ تلك الحكمة حيث يقول تعالى، "وإذ قال لقمان لابنه وهو يعظه يا بني لا تشرك بالله إن الشرك لظلم عظيم. ووصينا الإنسان بوالديه حملته أمه وهنا على وهن... يا بني أقم الصلاة وأمر بالمعروف وانه عن المنكر واصبر على ما أصابك إن ذلك من عزم الأمور. ولا تصعر خدك للناس ولا تمش في الأرض مرحا إن الله لا يحب كل مختال فخور..." فالقرآن العظيم يتحدث ـ هنا ـ عن فرعين رئيسين من فروع الحكمة وهما علم ما بعد الطبيعة وعلم القيم (الأخلاق)؛ هذا بالإضافة إلى العبادات بالطبع.

بعد تفاعل الحضارة الإسلامية مع الحضارات المجاورة ـ وخصوصا الإغريقية ـ أصبحت الحكمة مرادفا للفلسفة عند حكماء (مفكري) العالم الإسلامي. وهذا بدوره أدى إلى تداخل الحكمة مع علم الكلام والفقه والتصوف وعلوم اللغة.

يجدر بالذكر أن الفلسفة الإسلامية هي البحث في ما بعد الطبيعة والكون والإنسان في ضوء التعاليم الإسلامية، سواء كان الباحث (المفكر) عربيا كالكندي أوغير عربي (تركي) كالفارابي. لأن إستخدام مصطلح الفلسفة الإسلامية ـ هنا ـ يشير إلى الفلسفة منسوبة إلى الحضارة الإسلامية بالعموم. إذ لا يصح إخراج الباحثين والمفكرين غير العرب، أمثال الهنود والفرس والأفغان وغيرهم، عن نطاق الفلسفة الإسلامية طالما إنطبق عليهم التعريف المذكور آنفا، لمجرد أن لغتهم الأم ليست العربية، فهم جزء من الحضارة الإسلامية؛ إذ أن الفلسفة هي صلب الحضارات.

قضية أخرى يجدر بنا ذكرها ـ هنا ـ وهي أن كلمة فلسفة عربت من الإغريقية، وتعني ـ أصلا ـ حب الحكمة. لكن هذا لا يعني ـ بأي حال من الأحوال ـ أن بداية الحكمة في الحضارة الإسلامية مصدرها إغريقي، أو أنه لم يكن لها وجود قبل تفاعل المسلمين مع الإغريق.

بدأ الفكر الإسلامي بحث الحقائق من منظور فلسفي ـ بالرؤية الشاملة للحياة ـ منذ بزوغ نور الإسلام. وقد إعتمد أساسه على الطرق اللغوية، مستمدة من القرآن الكريم، لنشر وتثبيت دعائم الإسلام نفسه. وتطور هذا الفكر شيئا فشيء لمواجهة المشككين في الإسلام كطريق حياة؛ كما هو الأمر مع نصارى نجران مثلا. تطور ـ بعد ذلك ـ هذا الفكر وبلغ مبلغه في القرن التاسع الهجري بعد التداخل مع الحضارات المجاورة ـ وخصوصا الإغريقية ـ مما أدى إلى ظهور مفكرين خارجين عن معهود علم الكلام. هذا بدوره أدى إلى الإنتقال من دراسة النص القرآني والنبوي إلى إثبات الحقائق عقليا؛ حيث بلغ الفكر الفلسفي آفاق جديدة عند الفارابي وعند إبن رشد في الأندلس. نتيجة لتلك الرحلة الفكرية، تطور علم الكلام وظهر القياس في الفقه ـ مثلا ـ كمبدأ من مباديء الإستنباط.

أول محور ـ يجدر بنا إيضاحه ـ هو العلاقة بين الحكمة وعلم الكلام. علم الكلام هو تعضيد الأمور الدينية ـ خصوصا العقدية ـ بالحجة العقلية. هذا العلم يرادفه علم اللاهوت في المسيحية، مع إختلاف ملحوظ بطبيعة الحال. وتعد الحكمة أكبر وأشمل من علم الكلام واللاهوت، إذ يمكن إعتبار علم الكلام فرعا ثانويا للحكمة. ويعد هذا الفرع جزء من فرع الحكمة الرئيس: ما بعد الطبيعة.

علم الكلام في أساسه مهتم بتعضيد وجود الله تبارك وتعالى وبحث صفاته وصلته عز وجل بمخلوقاته ـ بما فيها الإنسان ـ طبقا للشريعة التي أنزل على رسله في كتبه المقدسة. ويتخذ علماء الكلام العقيدة الإسلامية كما هي في كتاب الله أمرا لا شك فيه؛ مثل وجود الله ووحدانيته والبعث، ثم يوطدونها بالحجج العقليه جدليا. وتعد هذه الطريقة مختلفة عن طريقة الحكمة التي لا تحد ـ شرطا ـ بمنظومة دينية ولا عقيدة مسبقة.

تطور علم الكلام لاحقا، وظهرت نتيجة لذلك معتقدات إختلف عليها علماء الإسلام من معتزلة وحنابلة وأشاعرة. أما الفلسفة فابتعدت عن علم الكلام، حيث أخذ كل منهما مجرى مختلف وأصبح علماء الكلام ـ أمثال النظام والجبائي وغيرهم ـ عقديون. وأفضى بهم الأمر إلى التنازع مع الفلاسفة، ويتضح ذلك مليا في "تهافت الفلاسفة" للغزالي. أما الفلاسفة فجرحوا آراء المتكلمين وطرقهم واتهموها بالضعف كما هو الحال في "تهافت التهافت" لابن رشد. وأدى هذا التميز لظهور فلاسفة ـ كابن سينا وابن طفيل ـ يختلفون إختلافا بائنا عن المتكلمين كالعلاف والأشعري. أفضى هذا الإختلاف أخر أمره إلى إحتواء علم الكلام للفلسفة، حيث أصبحت جزءا ذائبا في كليته كما سنرى لاحقا.

وبعد القرن السابع الهجري، إمتزجت الحكمة بالكلام، حيث إحتواها علم الكلام فأصبحت كتب العقيدة ـ مثلا ـ تحتوي المنطق والآراء الطبيعية والفلسفية كما هو الحال في كتابات عضد الدين الإيجي. ويؤرخ ابن خلدون هذا في مقدمته حيث يقول، "وأعلم أن المتكلمين لما كانوا يستدلون في أكثر أحوالهم بالكائنات وأحوالها على وجود الباري وصفاته وهو نوع استدلالهم غالبا؛ والجسم الطبيعي ينظر فيه الفيلسوف في الطبيعيات وهو بعض من هذه الكائنات، إلا أن نظره فيها مخالف لنظر المتكلم فهو ينظر في الجسم من حيث يتحرك ويسكن، والمتكلم ينظر فيه من حيث يدل على الفاعل. وكذا نظر الفيلسوف في الإلهيات إنما هو نظر في الوجود المطلق وما يقتضيه لذاته؛ ونظر المتكلم في الوجود من حيث أنه يدل على الموجد. وبالجملة فموضوع علم الكلام عند أهله إنما هو العقائد الإيمانيه بعد فرضها صحيحة من الشرع من حيث يمكن أن يستدل عليها بالأدلة العقلية، فترفع البدع، وتزول الشكوك والشبه من تلك العقائد. ولقد اختلطت الطريقتان عند هؤلاء المتأخرين والتبست مسائل الكلام بمسائل الفلسفة بحيث لا يتميز أحد الفنين عن الآخر، ولا يحصل عليه طالبه من كتبهم، كما فعل البيضاوي في الطوالع، ومن جاء بعده."

تعد الحقبة التي تلت إحتواء الكلام للفلسفة حقبة زمنية غير معطاءة، حيث أصبح المسلمون ينظرون إلى الحكمة على أنها كفر وإلحاد وانصرفوا عنها وحرم الإشتغال بها. وظل الحال على هذا، حتى استعادت الحكمة مكانتها ودبت فيها الحياة على يد مفكرين دينيين أمثال جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده ومصطفى عبد الرزاق.

بغض النظر عن تباين التفاعل الإسلامي مع الفلسفة عبر التاريخ، إلا أن للفلسفة الإسلامية دور لا ينكر ومكانة عظيمة لا يستهان بها. وحيث أن الفكر ـ وخصوصا فيما بعد الطبيعة ـ هو جزء من كينونة الإنسان تمليه عليه فطرته البشرية، كانت روحانية الإعتقاد ـ أيضا ـ حتمية وواجبة الوجود بالبداهة. فللفلسفة الإسلامية أسلوب فريد في البرهنة، ولفلاسفتها أسلوب خاص حيث إنتهوا إلى براهين عقلية تثبت العقيدة وتعمق الإيمان وتدحض الشبهات. ويعد أحد تلك البراهين قولهم بأن الموجود إن كان واجبا فهو المطلوب، وإلا إستلزمه، لاستحالة الدور والتسلسل. وهذا يعني أن أي شيء موجود بالبداهة إن كان واجب الوجود فهو المطلوب، وإن كان ممكنا إفتقر إلى مؤثر موجود بالبداهة، فذلك المؤثر إن كان واجبا فهو المطلوب، وإن كان ممكنا إفتقر إلى مؤثر أيضا، فإن كان واجبا فالمطلوب، وإن كان ممكنا تسلسل والتسلسل باطل. ولإيضاح ما سلف قالوا: لا شك في وجود موجود. فذلك الموجود إن كان واجبا لذاته (أي أن الوجود ذاتي له كذاتية الحرارة للنار) فقد حصل المطلوب، وإن كان ممكنا لذاته إفتقر إلى مؤثر، فذلك المؤثر إن كان واجبا لذاته فقد حصل المرام أيضا، وإن كان ممكنا لذاته إفتقر إلى مؤثر، فذلك إن كان هو نفس أثره لزم الدور، وهو محال لأنه حينئذ يتوقف كل واحد منهما على الآخر، في حين أنه يجب تقدم ذلك المؤثر على الأثر. وإن كان ذلك المؤثر شيئا آخر غير أثره فلا يخلو من أن ينتهي إلى موجود واجب لذاته أو أن يتسلسل إلى غير نهاية. فإذا إنتهى إلى موجود واجب لذاته، ثبت المطلوب. وإذا تسلسل إلى غير نهاية فهو باطل. وحيث أن كل ممكن لا بد له من مؤثر، فهذا المؤثر لا يخرج عن ثلاث حالات: إما أن يكون نفسه أو أمرا

داخلا فيه أو أمرا خارجا عنه. والحالة الأولى محالة، لأن المؤثر لابد أن يكون متقدما على أثره، ولأن تقدم الشيء على نفسه ممتنع عقلا. والحالة الثانية محالة أيضا، لأن المؤثر في الشيء مؤثر في كل أجزائه، فلو كان أحد أجزاء ذلك الشيء مؤثرا في ذلك الشيء لزم أن يكون مؤثرا في نفسه ومؤثرا في ما أثر فيه وكل منهما محال؛ أما الأول فلإمتناع تقدم الشيء على نفسه، وأما الثاني فلإستلزامه الدور وهو باطل. ولما بطلت الحالتين السابقتين تعينت الثالثة، وهي أن يكون المؤثر في ذلك الشيء أمرا موجودا خارجا عن ذلك الشيء، والخارج عن الممكنات لا يكون ممكنا لذاته، وإلا لكان داخلا في جملتها، بل لا بد أن يكون خارجا عنه، وهو المطلوب.

فحوى هذا البرهان هو أنه لما كان لهذا الكون موجد بلا شك لأنه لا يمكن أن يوجد الشيء من العدم بنفسه، وكان هذا الموجد موجودا ـ بلا شك ـ لأنه لا يمكن أن يكون وجود الكون مسببا من أمر عدمي، أي من موجد لا وجود له، فهذا الموجد إما أن يكون واجب الوجود أو لا. فإن كان واجب الوجود فقد ثبت المطلوب. وإن لم يكن واجب الوجود فلا بد له من سبب مؤثر فيه، فإن كان هذا السبب المؤثر واجب الوجود فهو المطلوب أيضا، وإن لم يكن كذلك فلا بد له من سبب مؤثر أيضا. وهكذا ينتهي بنا الأمر إلى الجزم بوجود خالق واجب الوجود ومصدره ومودعه في الكون وإلا لزم أحد أمرين؛ إما التسلسل أو الدور. فأما التسلسل فهو أن يتوقف كل موجود على موجد، وهذا الموجد على آخره يوجده، وذلك على موجد أيضا، وإلى ما لا نهاية له، وقد ثبت أن التسلسل اللانهائي باطل حيث لا يوصل إلى نتيجة. أما الدور فهو أن الموجد المؤثر قد خلق شيئا هو المعبر عنه ـ بالأثر ـ وأن يكون ذلك الأثر هو الموجد للمؤثر فيه، وهذا واضح البطلان لأنه ينتهي إلى توقف الشيء على نفسه. ولما كان التسلسل والدور باطلين، فقد ثبت أنه لا بد من الإقرار بوجود صانع مبدع موجد واجب الوجود لذاته وهو الله تبارك وتعالى لا شريك له.

كان إهتمام القرآن بهذه الأمور وتلك البراهين يفوق الكتب السماوية المنزلة، حيث أنزل للبشرية جمعاء؛ فهناك الملحد والمشرك والتوراتي والإنجيلي، ولكل منهم رأيه الخاص في الرب وطريقة العبادة. ثم لما كان الإسلام خاتم الأديان والقرآن خاتم الكتب وكان مقدرا لهما الإستمرار في إدارة حياة البشر إلى يوم القيامة، كان لزاما على القرآن أن يعنى بالأدلة الثابتة على وجود الله ووحدانيته، ويلفت أنظار الملحدين إلى خالق الكون ويغلق الطريق على الشرك بما يورده من أدلة عقلية وبراهين مقنعة، "إن في خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولي الألباب." "ولئن سألتهم من نزل من السماء ماء فأحيا به الأرض من بعد موتها ليقولن الله قل الحمد لله بل أكثرهم لا يعقلون."

المحور الثاني هو الفلسفة والتصوف. وتعد مقولة الإمام علي عليه السلام في الحكمة والعرفان دليلا عظيما ونظرة ثاقبة حيث يقول، "العلم نهر، والحكمة بحر، والعلماء حول النهر يطوفون، والحكماء وسط البحر يغوصون، والعارفون في سفن النجاة يسيرون." وفي الصوفية، هناك أصل الزهد والعبادة حيث يعبدون الله تعالى طمعا في ثوابه وجنته وهذا طريقهم إلى الحقيقة. وهناك حكماء الحكمة الإلهية، حيث يعرف الله تعالى نفسه إليهم عن طريق جلاله وعلوه. وهناك ـ أيضا ـ العارفون الذين يعرفهم الله عن نفسه فيما يتجلى منه عز وجل إليهم، وهم أهل الحقيقة العليا.

وفي الصوفية، كرم الإنسان على سائر المخلوقات بسبب معرفة الله التي هي الأساس الرئيس. والعارفون يختلفون ـ كما إتضح سابقا ـ عن العلماء. وهذه المعرفة تختلف أساسا وأصولا عن العلم، حيث أنها تتماشى مع الفلسفة الشرقية بصفة عامة، وتختلف عن الفلسفة الغربية من حيث الطرق والوسائل. فليس هناك مكان فسيح للمنطق ـ كطريقة من طرق المعرفة الغربية ـ لا سيما أن وجود الله تبارك وتعالى وإثبات وحدانيته يعد مما بعد الطبيعة، حيث يقف المنطق عليلا لا يستطيع الوصول إلى ما هو أسمى منه، ولذلك كان الإيمان درجة أعلى مما هو جسدي من العبادات. وإذا كانت الغاية من الصوفية هي العرفان الذي يشرق في القلب عن طريق الإلهام للكشف عن الحقيقة، فهذا يتماشى مع الفلسفة الشرقية بصفة عامة. وهذا العرفان بالله ووحدانيته وجلاله وجبروته يصبوا إليه المتصوف، سواء كمعرفة مشاهدة أو معرفة حقيقة أو معرفة إقرار.

يجدر بنا أن نوضح ــ هنا ــ أن الفلسفة بصفة عامة تختلف عن التصوف، وخصوصا الفلسفة الغربية؛ سواء كانت دينية كنتيجة لتطور الفكر المسيحي ــ مثلا ــ أو مادية بحتة أو غير ذلك. فهذه الفلسفة تنظر بعين العقل وتجري على طريق الإستدلال والمنطق غالبا. أما التصوف فيسلك طريق المشاهدة والإلهام والحدس.

وفي عصور التصوف المتأخرة، تكونت مفاهيم تأثرت بأفكار فلسفية مثل الإتحاد أو وحدة الوجود وكان هذا نتيجة إحتواء التصوف للفلسفة ــ كما هو الحال مع علم الكلام ــ وتأثره بها وخصوصا الفلسفة الشرقية، سواء هندية أو صينية.

ربما لم يكن هناك مفكر إسلامي أكثر تدرجا وتقلبا بين هذه العلوم والمفاهيم كالغزالي حيث يقول في "المنقذ من الضلال"، "أما بعد، فقد سألتني أيها الأخ في الدين أن أبث إليك غاية العلوم وأسرارها، وغاية المذاهب وأغوارها، وأحكي لك ما قاسيته في إستخلاص الحق من بين إضطراب الفرق مع تباين المسالك والطرق... وما إستفدته أولا من علم الكلام، وما إحتويته ثانيا عن طرق أهل التعليم القاصدين لدرك الحق على تقليد الإمام؛ وما ازدريته ثالثا عن طرق التفلسف؛ وما ارتضيته آخرا من طريق التصوف." وهنا يتضح أن الغزالي أرتضى التصوف بديلا لعلم الكلام والفلسفة حيث أن هذه العلوم ــ بالنسبة له ــ مختلفة ومتباينة.

ولم يفتأ الفلاسفة عن معارضة المتكلمين والمتصوفة حيث يتضح هذا جليا في "الكشف عن مناهج الأدلة في عقائد الملة" لابن رشد. فهو يعيب على المتكلمين والمتصوفة طرقهم وأدلتهم وأهدافهم. لكن هذا لا يعني أن ما إتضح سابقا من تشابه وإحتواء وإمتزاج بين الفلسفة والكلام والتصوف غير صائب؛ وخصوصا في العصور المتأخرة من تاريخ الفلسفة الإسلامية.

المحور الثالث هو علاقة الفلسفة بالفقه. إذا قلنا أن الفلسفة الإسلامية والكلام والتصوف لهم جذور إسلامية، لكن تلك العلوم على مدى التاريخ الإسلامي تأثرت بالحضارات المجاورة من إغريقية وهندية وفارسية وغير ذلك، فإن الفقه الإسلامي أولى بذلك كله. لا سيما أن هذه العلوم ــ وخصوصا الفقه ــ تمتد جذورها إلى عمق القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة. بالإضافة إلى أن كثيرا ممن نبغ وعلا صيته من علماء لم يكونوا عربا وإنما هم أحفاد وخلاصة كل تلك الحضارات المجاورة التي أصبحت فيما بعد جزء من المد الإسلامي، وأصبح هؤلاء العلماء نجوما ساطعة في سماء الحضارة الإسلامية.

ما سبق قوله لا يعني بأي حال من الأحوال دونية العرب عن غيرهم، فالشافعي هو أول من وضع أصول الفقه. فقد كانت رسالته أول ما صنف في الفقه وهي بداية موفقة للتأليف العلمي المنظم، حيث كانت سابقة في زمانها. وتتضح نشأة الفكر الفلسفي فيها من ناحية العناية المنهجية بالأصول والفروع والجزئيات؛ هذا بالإضافة إلى الإتجاه المنطقي. هذا بحق أسهم في تأثر علم الأصول ــ لاحقا ــ بالمنطق الأرسطاليسي، كما هو الحال في الأصل الرابع من أصول الفقه وهو القياس. ولا نتناسى هنا ــ بالتأكيد ــ الجانب الفقهي في إستنباط الأحكام الشرعية الفرعية من أدلتها التفصيلية في النص سواء قرآني أو نبوي أو سلفي.

المحور الرابع هو علاقة الفلسفة بالعلم في الحضارة الإسلامية. الفلسفة في منشائها ــ وخصوصا الغربية ــ صدرت واستقامت على أسس العلوم الرياضية والطبيعية، لا على أسس دينية. فلا غرابة أن يتنازع الدين مع الفلسفة كثيرا (إلا في الشرق الأقصى) ويحكم على الفلاسفة بالكفر ويصل الأمر أحيانا إلى القتل. لكن الفلسفة تنظر في الطبيعيات لتهتدي بها على وجود الخالق، بل أن ما بعد الطبيعة هو قمة الفلسفة وأسمى فروعها، إذ تعد الإلهيات أعظم فروع ما بعد الطبيعة. وهذا كان من أعظم ما طوره المسلمون في تاريخ الفلسفة، إذ جعلوا الفلسفة نظام حياة متكامل حيث يمتزج العقل والنقل والوجدان والتجربة.

العلم هو جزء من هذا النظام المتكامل. فظهر الفلاسفة الذين كانوا مهرة في العلوم أولا ثم إرتقوا منها إلى الفلسفة. وهذا حال الكندي (فيلسوف العرب) الذي برع في العلوم الرياضية والفلك. وهذا ابن سينا الذي وصلت شهرته الآفاق كطبيب فيلسوف. وقل مثل ذلك عن ابن رشد الذي كتب "الكليات" في الطب، وكان إلى ذلك فيلسوفا أيضا. ويقول عنه جورج سارتون في مقدمته التاريخية للعلوم، "أن عظمة ابن رشد أحدثت إثارة شديدة في عقول البشرية استمرت إلى قرون طويلة كانت نتيجتها الإنتقال من العلوم القديمة بكافة أشكالها إلى علوم العصر الحديث**!**" ولا ننسى هنا أن ننوه بأن تلك الإثارة أغاظت الكنيسة بشدة حتى كالت له من المقت والذم الشيء الكثير.

ويجدر بنا أن نلاحظ أن الدين والفلسفة والعلم والأدب والصناعة هم ما يميز الحضارات ويرفع من شأنها، والعكس صواب. فالجهل والخرافة وغير ذلك هم معاول الهدم والدمار. وكل تلك العلوم متداخلة يؤثر بعضها في بعض. وقد لعبت الفلسفة الإسلامية دورا قيما على مسرح الحضارة الإسلامية وخصوصا عندما توافقت مع العلوم الأخرى فارتفع شأنها وعلا، حيث أصبحت الحضارة الإسلامية في وقتها النور الوحيد على الأرض من أطراف الصين شرقا إلى الأندلس غربا. وعندما إنقرض المفكرون إنطفأ ذلك النور وماتت تلك الحضارة وأصبح أهلها تابعين.